

منهج شوقي ضيف في «البلاغة تطور وتاريخ»

د. منير سلطان

شوقي ضيف تاريخ ومنهج:

لا يختلف معي كثيرون، إذا قلت إن كتاب «البلاغة تطور وتاريخ» مَعْلَمٌ من معالم البحث البلاغي في عصرنا الحديث، وأنه لا بديل للباحث من الوقوف عنده متعلماً ثم مؤيداً أو مناقشاً. فالدكتور شوقي ضيف، تاريخ ومنهج، تاريخ يرتبط بنشأة الجامعة المصرية، ويظهر الجيل التالي لجيل الأعلام المؤسسين، عرباً ومستشرقين، ومنهج يقوم على شمول النظرة، وعمق التجربة والالتحام بالموروث مع سدادٍ في الرأي^(١).

وحين يتصدى لِبحْثٍ في البلاغة، كما فعل في غيرها من علوم العربية، فإنه يقول ما له اعتباره، ويقوم بما لم يسبق إليه، في الشكل والمضمون، ومن ثم يأخذ كتابه مكانته اللاتقة به في الفكر العربي، والفكر الغربي المهتم بشئوننا العربية.

وقد حدد الدكتور شوقي ضيف غايته من الكتاب قائلاً «لم تكن غايتي أن أصور هذا التاريخ لبلاغتنا فحسب، بل أيضاً أن أصور الترابط الوثيق بينها وبين أدبنا في تطورها، حتى انتهيا إلى الجمود والتعقيد والجفاف والتكرار الممل، وأن أرسم في تضاعيف هذا التطور الوشائج الواصلة بين كل بلاغي وسابقه ولاحقه، بحيث تتضح معالم هذا التطور اتضاحاً تاماً» (ص ٦).

فهو ينظر إلى البلاغة من خلال الأدب، ويمزج بينهما وبين رجالها، ويلعلم شذراتها، ثم يتبعها في حال نموها، وحال تحولها إلى كيان مستقل، أو اشتراكها في اتجاه ما، أو بروزها في منهج ما، حتى يصل البحث إلى مشارف الركود، وأستار الضباب، عندما انتكست البلاغة، وتجمدت أطرافها، وباتت تنتظر الدفء مع مطلع الفجر الجديد.

(١) ظهرت الطبعة الأولى للكتاب سنة ١٩٦٥، عن «دار المعارف» بالقاهرة.

ولا يدع الدكتور شوقي ضيف عرضه الشامل - هذا - يمر دون أن يعقب عليه، فالخطبة التي انتهجها، قد أتاحت له أن يطرح البلاغة على مائدة البحث بجميع أطرافها يتأملها في حال شبابها وجمالها، وحال كهولتها وذبولها، ثم يقترح العلاج، ليعود الرُّواء.

بذا يقف هذا الكتاب علماً سامقاً في ساحة البحث البلاغي، مختلفاً عما كتبه د. أحمد ضيف، والشيخ أحمد مصطفى المراغي، ود. سيد نوفل، وغيرهم، لأنه يسد فراغاً لم تنجح هذه الدراسات وغيرها في أن تملأه.

أولاً: الترابط الوثيق بين تطور البلاغة وتطور الأدب :

البلاغة هي معيار الذوق الأدبي لأمة من الأمم في عصر من العصور، ونمو الذوق ينمي الأدب، ونمو الأدب ينمي الذوق، لا انفصام بينهما.

وما كانت تلك الشذرات الأولى التي تعقبها الدكتور شوقي ضيف لنشأة البلاغة سوى محاولة للارتفاع بمستوى الأداء الفني في الشعر، حتى لا يتخلف عن المستوى الرفيع الذي بلغه العرب في الجاهلية، (ص ٩)، «ومن أكبر الدلالة على ما حذقوه من حسن البيان أن كانت معجزة الرسول الكريم، وحجته القاطعة لهم أن دعا أقصاهم وأدناهم إلى معارضة القرآن في بلاغته الباهرة (ص ٩).

وليس غريباً أن تنبت الشذرات البلاغية الأولى في بيئة الشعراء الذين «كانوا يقفون عند اختيار الألفاظ والمعاني والصور، ومن يتصفح أشعارهم يجدها تزخر بالتشبيهات والاستعارات والجناسات مما يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يعنون عناية واسعة بإحسان الكلام، والتفنن في معارضة البليغة» (ص ١٣).

ولم يكن القرآن الكريم شاهداً فحسب على اهتمامهم برقى ذوقهم البلاغي، بل كان منسقا لهذه الجهود، ومطوراً لها، ومحددًا المثل الأعلى الذي به يحتذى، فكان كتاب هداية، وفن، توازره فصاحة الرسول الكريم، وبلاغة سنته المشرفة.

ولم يستأثر الشعر بنمو البلاغة مثلما كان قبل الإسلام، وإنما أضيفت إليه الخطابة لشدة الحاجة إليها بعد ظهور الإسلام. «وكان أبو قرة وعثمان خطيبين موهَّبين، وكانا يستضيئان في خطابتهما بخطابة الرسول الكريم، وآى الذكر الحكيم» (ص ١٤).

وفي عصر بني أمية ازدهرت الخطابة السياسية والحفلية والوعظية، «والحق أن الملاحظات البيانية كثرت في هذا العصر، وهي كثرة عملت فيها بواعث كثيرة فقد تحضر العرب واستقروا في المدن والأمصار، ورقيت حياتهم العقلية، وأخذوا يتجادلون في جميع شئونهم السياسية والعقيدية.. فكان طبيعياً أن ينمو النظر في بلاغة الكلام، وأن تكثر الملاحظات المتصلة بحسن

البيان، لا في مجال الخطابة فحسب بل أيضا في مجال الشعر والشعراء، بل لعل المجال الثاني كان أكثر نشاطاً لتعلق الشعراء بالمديح، وتنافسهم فيه» (ص ١٦).

وهكذا لم يكن ازدهار الخطابة والشعر في حقيقة الأمر سوى ازدهار للأدوات البلاغية التي كانت وسيلة لإثارة الإعجاب والإمتاع والإقناع.

ولا نكاد نصل إلى العصر العباسي الأول حتى تتسع الملاحظات البلاغية، وقد أعدت لذلك أسباب مختلفة، منها ما يعود إلى تطور النثر والشعر، ومردة إلى أن كثيرين من الفرس والموالي أتقنوا العربية، واتخذوها لسانهم في التعبير عن عقولهم ومشاعرهم، وأظهروا في ذلك براعة منقطعة النظير بالإضافة إلى كتاب الدواوين، وكان ذوقهم مترفاً يعامل ما انغمسوا فيه من الحضارة، وعاشوا يصفون كلامهم، ويتخيرونه مما يجمع الجزالة والرصانة مع السلامة والنصاعة، والرواق والطلاوة.

ومنها ما يعود إلى تطور الحياة العقلية والحضارية القائمة على الترجمة.

في خضم هذه النهضة تحولت البلاغة من شذرات متفرقات في كتب اللغة والنحو والأدب والتفسير والأصول إلى راسة منهجية منظمة، أبرزها.

١ - دراسة «إعجاز القرآن».

٢ - ما تركته الخصومة بين المحافظين والمجددين في البلاغة من دراسات.

٣ - الدراسات النقدية البلاغية.

٤ - الدراسات الأدبية البلاغية.

أما عن قضية «إعجاز القرآن»، فللبلاغة النصيب الأوفى، لأن البحث عن سر مفارقة أسلوب القرآن لما تعود عليه العرب من أساليب، هو الذي لفت العلماء إلى ما فيه من خصائص فنية، فسعوا جاهدين لتحديدتها.

ونستطيع أن نجعل جهود البلاغيين والنحاة في «مجاز القرآن»، وكتب «معاني القرآن» توطئة للدراسات المنهجية المنظمة، التي نهض بها المتكلمون الذين انطلقوا في طريقهم منفردين، بعد أن أخذ اللغويون يتوسعون بعد القرن الثالث في مباحثهم اللغوية الخالصة منحازين عن مباحث البلاغة، وكأنهم رأوا - مُحِقِّين - أنها ميدان غير ميدانهم. (ص ٦٣).

وتظل كتابات الجاحظ - شيخ البلاغيين - مَعِينًا لا ينفد لمد الأجيال التالية بكثير من فنون البلاغة، ونرى صداها يتردد فيما كتب المعتزلة، كالرُّماني والجُبَّائِيْن أبي هاشم وأبي علي، وعبد الجبار الأسد آبادي، والشريف الرُّضَيِّ والشريف المرتَضَى، وابن سِنَان الخفاجي حتى الزمخشري، وما كتب الأشاعرة كالباقلائي إلى الجرجاني، كل يستمد منها حسب قدرته ومهارته الذهنية» (ص ٥٧).

ولم تكن الخصومة بين المحافظين والمجددين سوى استجابة لنداء التطور، فالانتقال من دائرة الموروث العربي الخالص في البلاغة - ومحافظ عليه اللغويون - إلى محاولة تنظيم البلاغة العربية، حسب قواعد يونان - ويدعو له المجددون - قد أثرى الدرس البلاغي، فهذا ابن قتيبة، والمبرد، وتعلب، يشاركون في الملاحظات البلاغية في ثنايا تعليقاتهم على نصوص الشعر وآى الذكر الحكيم، ويكشفون بذلك جمال الأساليب العربية، وتعدد طرقها في الأداء، بينما يذهب قدامة، وإسحق بن سلمان بن وهب، وابن رشد، والفارابي، إلى جعل البلاغة اليونانية مثلاً أعلى للبلاغة العربية، كما يرون أن الشعراء المجددين وأصحاب البديع هم أبناء الحضارة العربية الجديدة، لذا سبقوا إلى هذا الفن - وكان كتاب «البديع» لابن المعتز ناصراً للمحافظين، أمام هذه الأفكار المتطرفة، وذلك حين يعلن إعلاناً لا مواربة فيه «أن المُحدثين من الشعراء، لم يخترعوا البديع الذى يلهجون به، وأن البديع قديم فى العربية، بل أنه ليتعمق فى القِدَم حتى العصر الجاهلى، وأن ما للمحدثين منه من أمثال بشار، إنما هو الإكثار من استخدام فنونه فحسب» (ص ٦٧، ٦٨).

وكان المتكلمون يخوضون هذه المعركة ولكن، معتدلين، لا يسرفون فى المحافظة غافلين عن سنة التطور. (ص ٦٦).

وتأتى الدراسات النقدية والبلاغية، وهى تعتبر معالجة أخرى لمشكلة المحافظين والمجددين، ولكن من خلال مقاييس النقد وقضاياه، لأنها دارت حول مذهبين واضحين فى الشعر، أحدهما مذهب أبى تمام الذى كان يعنى - بتأثير ما تُقَف من الفلسفة وغيرها من ضروب الثقافة - بالتعمق فى معانيه - كما كان يعنى بمحسنات البديع حتى لَيُسْرِفَ فيها إسرافاً، ومذهب البحتري الذى لم يكن يأخذ نفسه بفلسفة ولا بثقافة، وهو مع ذلك كان يستخدم محسنات البديع بدون إسراف.

وطبيعى أن يصبح عماد النقد النظر فى هذين المذهبين المتقابلين، وكانا يقومان فى أكثر جوانبها على مدى ما يُسمح للشاعر به من استخدام فنون البديع، وهل يأتى بها فى قصد، أو يتجاوز القصد والاعتدال إلى الإسراف والمبالغة المقيتة، وأيضاً كانا يقومان على مدى التدقيق فى المعانى والغوص على خبيثتها.

وأبرز هذه الكتب كتاب «عيار الشعر» لابن طباطبا، و «الموازنة» للآمدى، و«الوساطة» للجرجاني.

وتتميز الدراسات الأدبية البلاغية أنها خرجت إلى الميل إلى التجديد دون التقليد، بالنسبة لشعراء بأعينهم، واستعرضت مختلف الاتجاهات شعراً ونثراً، تحاول تطبيق المفاهيم البلاغية، وذلك من خلال الشواهد العديدة على مدى العصور الأدبية إلى وقتها التى ألفت فيه، وفى كثير

من الأحوال ثُوقف عند التحليل الفنى الذى ينبىء عن دقة فى الحس، وصفاء فى الذوق، وأبرزها كتاب الصنائعيتين «لأبى هلال العسكري و«الععدة» لابن رشيق القيروانى، و«سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجى.

ثم يأتى عبد القاهر الجرجانى، المتكلم الأشعرى، ويُعتبر أقصى قمة وصلت إليها البلاغة، وذلك بكتابه «الدلائل» و«الأسرار»، فقد وضع قوانين البيان لأول مرة فى العربية وضعاً دقيقاً، كما وضع أيضاً قوانين للمعانى لأول مرة، وإذا كان قد شغل فى الدلائل ببيان خواص الصيغ الذاتية، فقد كان همه فى «الأسرار» أن يكشف عن «دقائق الصور البيانية متخللاً» لها بنظرات نفسية وذوقية جمالية رائعة (ص ٢١٨).

ولولا أن قيض الله تعالى للبلاغة العلامة الزمخشري المتكلم المعتزلى، الذى طَبَّقَ فكرة النظم التى تنادى بها الجرجانى على القرآن الكريم، لولا هذا، لظلت أفكار الجرجانى حبيسة كتابه، ولا نتظرنا طويلاً من يُوفِّق إلى القيام بهذا العمل الجليل، ولضاعت علينا نهضة بلاغية جُلَّى. إن أعظم ما قام به الزمخشري أنه حول الجهد الجرجانى فى البلاغة العربية إلى واقع ملموس، موصول الأثر، مضمون الشيوخ، معروف القيمة، لأنه ربطه بالتطبيق العملى على النظم القرآنى فى كتابه «الكشاف» مضيفاً إلى تطبيقاته ما اكتشفته قريحته وثقافته وذوقه المدرب.

وظهور الزمخشري كان يعنى أن البلاغة ما زالت بحاجة إلى كثير من الأيدى المدربة التى توسع دائرة التطبيق، فتخرج من النظم القرآنى إلى نظم الحديث الشريف، إلى الشعر إلى النثر بمختلف فنونها، وكان يعنى أيضاً أن المنهج بحاجة إلى التهذيب فيجنىح إلى النظرة الشاملة، والاستقراء التام، والإحاطة الواعية، وبذا ينبجى منهج الجرجانى من الجمود، ولكن من أسف، تلقف المتكلمون هذه الثمرة الطيبة فاستلوا منها روحها وجردوها من بهائها، وأبقوا لنا العظام. ذلك لأن الميراث جاء إليهم من مدرسة المتكلمين، فلم يلفت نظرهم فيه إلا ما يمكن أن يُقَعَّد وينظم، ولأن الحضارة قد تدهورت، فلم يجدوا فى أنفسهم، ولا فيمن حولهم من صار يستسيغ التأمل والتذوق الفنى ويصبر عليها.

وقد ظهر فخر الدين الرازى المتكلم الأشعرى ليكتب «نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز» وهو تنظيم وتبويب لما كتب عبد القاهر فى صورة تنضبط فيها القواعد البلاغية، وتنحصر فروعها وأقسامها حصراً دقيقاً. ثم يظهر السكاكى الذى «مضى يُعَبُّ من جداول الفلسفة، والمنطق، والاعتزال، والفقه، وأصوله، وعلوم اللغة والبلاغة» (ص ٢٨٧) ويكتب كتاب «المفتاح» وفى قسمه الثالث، قسم البلاغة إلى علمين كبيرين، أحدهما «علم المعانى» والآخر «علم البيان»، «واستطاع أن ينفذ من خلال الكتابات البلاغية قبله إلى عمل ملخص دقيق لما نثره أصحابها

من آراء، وصاغ ذلك كله لغة مضبوطة محكمة، استعان فيها بقدرته المنطقية في التعليل والتقسيم والتفريع، وكان عمدته في النهوض بذلك تلخيصَ الفخر الرازي وكتابي الجرجاني، وكشاف الزمخشري الذي استوعبه استيعاباً.

وتستمر الكتابات البلاغية في الانحدار، فيظهر الزمكاني، وبدر الدين بن جمال الدين بن مالك، الذي أطلق على المحسنات مصطلح «البديع» لتكمل الجناية على البلاغة بتقسيمها إلى علومها الثلاثة «المعاني» و «البيان» و «البديع»، ثم يأتي التنوخي الذي يخرج عن صف السكاكي، ويسمى مباحث البلاغة باسم «علم البيان» ثم ابن قيم الجوزية، وحمزة بن حمزة العلوي، ثم يأتي ابن الأثير، «وواضح أنه لم يكن مثقفاً ثقافة دقيقة بكتابات البلاغيين قبله... وفاته أن يطالع على كتابات عبد القاهر، والزمخشري، والرازي، على أنه يذكر الزمخشري أحياناً، ولكن ليرد عليه بعض آرائه، ومن المؤكد أنه لم يحط بما كتبه في «الكشاف»، وظل يضطرب اضطراباً شديداً في تصور المسائل البيانية الخالصة...، وكتابه بصفة عامة محاولة لتنظيم ما كتبه ابن سنان الخفاجي في كتابه «سر الفصاحة» مع بعض التفريعات والنظرات الجديدة، ومع العناية بفن الرسائل...» (ص ٣٣٤).

ويتوالى انحدار التأليف من سفح إلى سفح، فيظهر القزويني ليلخص القسم الثالث من كتاب المفتاح «للسكاكي، تلخيصاً دقيقاً واضحاً، ثم يعقبه بشرح له يسميه «الإيضاح» الذي يتلقى بحسن التلقي والقبول، ويقبل عليه معشر الأفاضل والفحول ويكب على درسه وحفظه أولو المعقول والمنقول، فصار كأصله يحط رحال تحريرات الرجال ومهبط الأنوار الأفكار، ومزدهم آراء البال، فكتبوا له شروحا» كما يقول صاحب كشف الظنون» (ص ٣٥١)، وتهمر الشروح، لتمعن في سد الطريق أمام العيون والبصائر، ولتضيّع ما كتبه الجرجاني والزمخشري، وكل صاحب ذوق وفن وثقافة في ساحة البلاغة العربية، وهذه المباحث كما يقول الدكتور شوقي ضيف بحق، «ظلت تتسلق على شجرة البلاغة حتى خنقتها خنقاً، وحتى أصبحنا لا نجد إلا كلاماً معاداً مكرراً لا ينمي ذوقاً ولا يربي ملكة» (ص ٢٥٨).

ثم تكمل دائرة العقم بالبديعيات التي «كانت تأخذ شكل مختصرات مجملة إلى درجة تشبه أن تكون رموزاً، ولذلك كان ناظمها يعمد توأ إلى شرحها» (ص ٣٦٦). إلى أن أشرق الفجر الجديد، وكانت مهمته ثقيلة، كان عليه أن يحلّ البلاغة من الشوائب والأصداف، وأن يحلّ البلاغة بالذوق القائم على الفهم والثقافة والتطور.

ثانياً: تواصل الدرس البلاغي حتى عصور الجمود:

الدكتور شوقي ضيف يحرص في عرضه التاريخي على إبراز سبب آخر للتطور البلاغي غير

مواكبتها لتطور الأدب، وهو: تواصل الدرس البلاغى بين العلماء، فاللاحق يروى عن السابق، ويتدبر ما وصل إليه ثم يضيف.

فَنُصِّبَ الشاعر يأخذ على الكمية قوله:

أَمْ هَلْ ظَعَائِنَ بِالْعِلْيَاءِ نَافِعَةٌ وَإِنْ تَكَامَلَ فِيهَا الْأَنْسُ وَالشَّنْبُ

يقول: باعَدَتْ في القول، ما الأنس من الشَّنْب؟ ويلاحظ الدكتور شوقي ضيف «أن نُصِّبًا يطلب إلى الكمية أن يقرن كلماته إلى لِفَقْها، ويصلها بمشكلاتها، وهو ما سمي عند البلاغيين فيما بعد باسم «مراعاة النظر» (ص ١٨)، وأن قدامة بن جعفر قد التفت في كتابه «نقد الشعر» إلى فكرة أن المديح ينبغي أن يكون بالفضائل النفسية، لا بأوصاف الجسم، وما يتصل بها من الحسن والبهاء والزينة، من نقد عبد الملك لابن قيس الرقيات بأنه أعطاه من المدح ما فخر فيه، وهو اعتدال التاج فوق الجبين الذي هو كالذهب في النظارة» (ص ١٨)، وابن المعتز يأخذ فكرة رد الأعجاز إلى الصدور من ابن المقفع، (ص ٢١)، والكتاب لسيبويه كان مَعِينًا للبلاغيين من بعد فيما يخص خصائص الأسلوب (ص ٢٩)، والأصمعي أول من أفاض في الحديث عن «المطابقة» بمعناها الاصطلاحي، وربما كان أول من اقترح اسمها، وكذا مصطلح «الالتفات» ومصطلح «الإفراط في الصفة» وبكل هذا أخذ ابن المعتز (ص ٣٠ - ص ٣٢)، الذي أخذ مصطلح «المذهب الكلامي» من الجاحظ، (ص ٦٨)، وابن المعتز أيضا الذي فتح الباب للبلاغيين من بعد أن يُكثَرُوا من فنون البديع حتى بلغت الخمسين بعد المائة، (ص ٦٩)، والفارسي الذي ذكر عنه الجاحظ تعريفه للبلاغة، بأنها معرفة مقاطع الكلام وتقييم فقره، وعباراته بعضها من بعض، أدى بالبلاغيين إلى جعل «الفصل والوصل» فصلاً خاصاً في علم المعاني، (ص ٣٦)، والجاحظ فتح الباب على مصراعيه ليهتم أصحاب البحث البلاغى بمسألة السرقات (ص ٥٧)، وأثر أبي عبيدة والجاحظ في ابن قتيبة لا ينكر (ص ٥٩)، وابن قتيبة هو الذي قدم للبلاغيين من بعد مثال «ومكروا ومكر الله» فسموه باسم «المشكلة»، (ص ٥٩)، المبرد صاحب ما سمي من بعده باسم «أضرب الخبر» (ص ٦١) وابن فارس يقدم فصل «معاني الكلام»، وأغلب الظن أن هذا الفصل الطريف كان مما أوحى لعبد القاهر جانباً من أفكاره في كتابه «دلائل الإعجاز» التي تقوم على أن للكلام معاني إضافية غير معانيه الحقيقية، وتأتى من صورة صيغته، وطبيعة تركيبها (ص ٦٣)، وقدامة بن جعفر يتأثر بثقافة اليونان، (ص ٩٥)، كما كان المعتزلة يسمعون من السريان، (ص ٣٩).

والخط متصل بين الجاحظ وبين الرُّماني والباقلاني وابن سنان الخفاجي، وغيرهم ومتصل أيضا بين القاضي عبد الجبار المعتزلي، والجرجاني الأشعري، الذي أخذ عن علي بن

عبد العزيز الجرجاني صاحب «الوساطة»، والزمخشري المعتزلي يطبق فكرة النظم عند الجرجاني.

وهكذا لا تُحطَى مصدرًا للفكرة، ولا تتعب في تتبع جرياتها، فالنوافذ مفتوحة والتواصل مستمر بين العلماء بغض النظر عن مذهب أو اتجاه فالعلم مشاع، والتعلم مفروض، والاقتداء مشروع، والإضافة واجبة.

كان لكل عالم إضافة أو إضافات: فما أن نذكر سيبويه، حتى نتذكر الركائز التي قدمها إلى علم المعاني، ونذكر «الفراء» فنراه صاحب فكرة «المشاكلة للإيقاع الموسيقي بين الفواصل» والأصمعي يضع مصطلح «الطباق» و«الالتفات» و«الإفراط في الصفة»، وابن المقفع صاحب مدرسة «الإيجاز الدقيق ذي المعنى الواضح العميق»، والجاحظ هو صاحب «البيان»، والمبرد صاحب «أضرب الخبر» في علم المعاني، وابن المعتز إضاءة بارزة في «البيدع» بمعنى «البلاغة»، وفي ردّه الهجوم على الأصالة العربية في البلاغة، وتحجيم الوافد اليوناني، والرمانى الذى صور «الإيجاز» تصويراً نهائياً، بحيث لم يُضَفْ إليه البلاغيون التالون شيئاً (ص ١٠٤) والباقلاني «أول من هاجم في قوة نظرية إعجاز القرآن عن طريق تصوير ما فيه من وجوه البيدع، ومن هنا تأتى أهميته، إذ أعد للبحث عن أسرار في نظم القرآن من شأنها حين توضح توضيحاً دقيقاً أن توقف الناس على إعجازه» (ص ١١٤)، وهو الذى حلل بعض قصار الصور تحليلاً شاملاً، لم يتوقف فيه عند آية آية، ولو استمر هذا النهج لتحرر العلماء من النظرات الجزئية، التى عالجوا بها بلاغة النظم القرآنى، و«عبد الجبار الأسد أبى» صاحب فكرة «النظم»، فالكلمة عنده «لا تُعدُّ فصيحة في نفسها، إذ لا بد من ملاحظة صفات مختلفة لها، لا بد من ملاحظة أبعادها ونظائرها، ولا بد من ملاحظة حركاتها في الإعراب، ولا بد من ملاحظة موقعها في التقديم والتأخير» وبذلك يقترب اقتراباً شديداً من عبد القاهر في تفسيره للنظم، (ص ١١٧)، و«ابن طباطبا» صاحب الحديث المستفيض عن «خطوات إبداع العمل الفنى»، وعن الترابط بين أجزاء العمل بحيث يؤدي أوله إلى وسطه إلى آخره، لا يَنبُدُّ عنه شيء، (ص ١٢٧) و«الأمدي» وقف أمام تيار قامة المتفلسف، و«على بن عبد العزيز الجرجاني» له نظرات فاحصة في أثناء حديثه عن المتنبي، من ذلك حديثه عن «الغلو والمبالغة»، وأبو هلال العسكري «يعنى في كتابه باستقصاء صور البيان والبيدع التى سجلها النقاد وأصحاب البلاغة. في عصره، كما يعنى بتحليل الأطراف منها تحليلاً يدل على رهاقة حسه وصفاء ذوقه ونقائه. و«ابن سنان الخفاجى» يفرّد حديثاً عن عيوب الكلمة، وعن أصواتها وحروفها، يظل معيناً ثابتاً للبلاغيين من بعده يتداولونه مفصلاً ويتداولونه مختصراً.. و«الجرجاني عبد القاهر» هو واضع البلاغة شكلها الفنى الأخير، والزمخشري مطبق فكرة النظم على القرآن الكريم.. أما الباكون التالون فقد أطفأوا السراج الوهاج، ثم تحبطوا في الظلام.

ثالثاً: منهجان ينقطعان وآخر يتصل:

أما المنهجان، فأحدهما المنهج الأدبي وما كان له أن ينقطع، والآخر منهج المتفلسفة، وما كان له أن يتصل، والثالث: منهج المتكلمين، الذي اتصل من «واصل بن عطاء» إلى «الفخر الرازي» و«السكاكي» و«القزويني» وغيرهم، وكانت بدايته مخصصة، لأنه جمع إلى الفن دراية بأصول علم الكلام، وفي عصور الجمود افتقد الفن، وبقيت الدراية بأصول علم الكلام، فتحولت البلاغة إلى قضايا منطقية، وسباق إلى تحجيف الجاف، وتمزيق الممزق.

المنهج الأدبي، الذي ما كان له أن ينقطع:

وبداياته كانت في مدرسة علماء العربية من لغويين ونحاة في ملاحظاتهم البلاغية المتناثرة، إلى كتبهم في «مجاز القرآن» و«معاني القرآن» و«إعراب القرآن» إلى مناقشتهم أخطاء الشعراء في الصياغة، ثم تأتى موسوعة «البيان والتبيين» للجاحظ، و«البديع» لابن المعتز، و«عيار الشعر» لابن طباطبا، و«الموازنة» للآمدي، و«الوساطة» للجرجاني، و«الصناعتين» للعسكري، و«سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجي، و«المثل السائر» لابن الأثير...، ويتميز هذا المنهج بغلبة الروح الفنية، والنزعة العربية، والاحتفاء بالموروث في شكل نماذج بليغة، والبعد عن زحام المصطلحات، والميل إلى التحليل، مع بروز شخصية المؤلف بثقافته وذوقه، وقد نال هذا المنهج ما نال الأدب من نهضة نهض معها، ونكسة انتكس بها ولو استمر لتغير وجه البلاغة، ولاختفى من سمائها أعلام أتت بهم مرحلة الجمود، وعمقوا هم هذا الجمود.

المنهج المتفلسف الذي انقطع:

وهو وليد الترجمات التي زحفت على الثقافة العربية، ويمثلها قدامة بن جعفر بكتابه «نقد الشعر» وإسحق بن وهب بكتابه «البرهان في وجوه البيان». ولم يكتب لهذا المنهج ذيوع، لأنه كان يريد صِبْغَةَ الذوق العربي بقواعد اليونان، بينما كان الذوق العربي في أوج فتوته وتدفق قوته، فلم يجد من يتحمس له إلا بعد قرون، على يد حازم القرطاجي وتلميذه السجلماسي في المغرب العربي، واندثار المنهج لا يعنى عدم الاستفادة من ملاحظاته السديدة.

المنهج الكلامي: وزعيمه شيخ البلاغيين المعتزلي صاحب البيان والتبيين «وقد انطلق هذا المنهج يُثري البلاغة من خلال دفاعه عن «إعجاز القرآن» من بعد الجاحظ على يد الرمانى المعتزلى، والجبائيين أبى هاشم وأبى على، والقاضى عبد الجبار، وهم المعتزلة، والباقلافي

والجرجاني الأشعريين، والزمخشري المعتزلي، وغيرهم من بعدهم، الذين يمثلون المنهج حين جفت ينابيع الفن فيه، وتحول إلى فلسف ومنطق وكلام ونحو.

ومن أسف أن عصور النهضة الحديثة بدأت وبين أيدي علمائنا «شروح التلخيص»، وكأنهم يصرون على استمرار المنهج الكلامي في مرحلته العقيمة، حتى جاء الشيخ «محمد عبده» العظيم، وأخرج كتابي الجرجاني إلى النور ودرّسها في الأزهر وسَطَّ حرب شعواء انتصر فيها منهج السكاكي ثانية، حتى أنشئت الجامعة الأهلية، فانبج الصبح من جديد، على يد د. طه حسين و د. أحمد ضيف، وأحمد أمين وأمين الخولي ود. شوقي ضيف وغيرهم من الأعلام. فصارت المدرسة السكاكية تاريخاً يتورخ للذوق البلاغي في مرحلة من مراحلها، وليست هي البلاغة نفسها.

رابعاً: رأى شوقي ضيف في بلاغة الأُمس وبلاغة اليوم:

بعد هذه الدراسة المستفيضة الشائقة، يختتم العالم العَلَم الدكتور شوقي ضيف جولته بتشخيص الداء واقتراح الدواء. داء بلاغتنا بالأمس، ودواء بلاغة اليوم.

فالداء: أن أسلافنا قد صَبُّوا عنايتهم على الكلمة والجملة والصورة: وذلك يرجع من بعض الوجوه، إلى أنهم قصدوا بقواعدهم تحليل بلاغة العبارة القرآنية، كما يرجع إلى طبيعة الشعر القديم، إذ كان في جلته وجدانياً غنائياً، ولو أن شعراءنا نظموا في أساليب جديدة كأسلوب الشعر القصصي أو المسرحي، أو لو أنهم نَوَّعُوا في شعرهم الوجداني، لتعددت الصور، واختلفت الأكال الفنية، ولَلَّحِقت بها الدراسات البلاغية، وللاحقتها في سباق التط.

ونفس هذه الملاحظة تنسحب على فن النثر الذي كاد ينحصر في الرسائل الديوانية، القائمة على الجملة المسجوعة، كما قامت القصيدة على البيت المفرد، وأشعر الشعراء الذي قاله.

ونحن في عصرنا نختلف عنهم من هذه الوجهة، فقد استحدثنا في مجال الشعر أساليب وفنوناً شتى، كما استحدثنا في مجال النثر المقالة والقصة والأقصوصة والمسرحية، حتى الخطابة نفذنا فيها إلى غط جديد وهو الخطابة القضائية..

والدواء: أن تلاحق دراساتنا البلاغية نهضتنا الأدبية: بحيث تصور فنوننا الشعرية والنثرية وأساليبها المتنوعة، وبحيث تكون صورة حياتنا الأدبية الحديثة.

وبلاغتنا القديمة من مقومات شخصيتنا، فعلينا أن نأخذ بتلابيبها على أن نُصَفِّها مما لحق بها من أدران الفلسفة والمنطق والكلام والنحو.

وهكذا، «نأخذ من القديم أصولنا، ومن الحديث حياتنا، فتتطور بلاغتنا، وتصير صورةً لنا». (ص ٣٧٦ - ص ٣٧٨).

هذا هو كتاب «البلاغة تطور وتاريخ»، قد وقعت عليه عيون الملايين من القراء منذ عام ١٩٦٥ م، وستقع عليه عيون ملايين أخرى، وسيتعلم منه الكثيرون والكثيرون، ويؤيدونه أو يناقشونه، وقد يختلفون معه، وأنا منهم، ولكننا جميعاً لا نختلف: في أن هذا الكتاب معلّم من معالم الدرس البلاغي، لعلم من أعلام عصرنا الحديث هو الأستاذ الدكتور شوقي ضيف.

د. منير سلطان

أستاذ النقد والبلاغة المساعد
كلية البنات - جامعة عين شمس